قصة ثور الوحش وحماره بين النجاة والهلاك

عند الشعراء الجاهليين والمخضرمين

إعداد

دكتور / محمد عبد السلام محمد علي

المدرس بقسم الأدب والنقد

كلية اللغة العربية بجرجا

الحمـدلله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام علـى أشـرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى اله وصحبه أجمعين . وبعد ؛

كنت قد قرأت قصيدة أبى ذؤيب فى رثـاء أولاده [١] ، ووقفـت كثيراً عند قصة ثور الوحش ومعركته مع كلاب الصيد وانتصاره عليها حيث ظهر فجأة صاحب الكلاب الصائد ، ووجه سهماً من سهامه للثور فأرداه قتيلاً .. تأملت هذا كثيراً ، وربطت بينه وبين مقولة الجـاحظ : " ومن عادة الشعراء ، إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكـلاب التى تقتل ثور الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال : كأن ناقتى بقـرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هى المقتولة ، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها ، وأما فى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة والكلاب هى السـالمة والظـافرة وصاحبها الغانم " [٢] ، فقررت أن أتتبع هذه السياقات التى نجا فيها الثور مقابلاً إياها بالسياقات التى تنتهى القصة فيها بمقتل الثور ، محاولاً إثبات أن هناك طرقاً ثابتة وقوالب محددة يصب فيها الشعراء معانيهم ، ومكنونات نفوسهم ، حسب سياقات معينة توجه دفة الحديث إلى المعانى والمقاصد المرادة .

فتتبعت ــ أولا ــ قصة ثور الوحش مع كلاب الصيد ، ثم اتبعتها بقصة

---

(١) المفضـليات للمفضـل الضـبى ، تحقيـق الأسـتاذ / أحمـد محمـد شـاكر والأسـتاذ / عبدالسـلام هـارون ، طبعـة دار المعـارف بمصـر الطبعـة التاسـعة رقـم ١٢٦ ص ٤٢٠ ومـا بعـدها ، وشـرح أشـعار الهذلين صنعة أبـى سـعيد السـكرى ، تحقيـق / عبـد السـتار أحمـد فراج ومراجعة / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى ، القاهرة ١/ ٤ وما بعدها .

(٢) الحيـوان ، للجـاحظ وضـع حواشـيه / محمـد باسـل عيـون السـود ، طبعـة دار الكتـب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ٢/ ٢٠ .

الحمر الوحشية الباحثة عن الماء ، ولم أقف كثيرا عند جانب الصياغة ؛ لأن هدفى متابعة غرض الشاعر من قصصه الذى يدخل بـــدوره فـــى غرضه العام من قصيدته .

والله من وراء القصد وهو الموفق بعونه ومنه

تمهيد :

درج شعراء العرب قديما على نظام معين فى التصوير ، حيث إن صورهم ــ غالبا ــ ما كانت منتزعة من بيئتهم التى يعيشون فيها ، وكانت الصور عندهم مركبة من جزئيات متنوعة ، أو مفردة مقيدة ، كتشبيه المرأة حال تيقظهامن النوم بعدة صور ، فيشبهون جمال عينيها الفاترتين بعينى المها والغزلان ، ويشبهون ريقها بالخمر والعسل ، ورائحتها بالصبا والمسك ....وغيرها ، وكلها صور بسيطة مرتبطة بأحوال معينة .

ومن الصور التى توارد الشعراء على سردها وذكرها صورة أوبد الوحش ، أوحيوان الصحراء : من حمر ، وبقر ، ونعام ، وجوارح، وغيرها ، وقد أكثروا من ذكرها وتصويرها كثرة ملحوظة فى شعرهم ، حتى أصبحت قوالب محفوظة يأتى بها الشعراء ويشكلونها من ألوان نفوسهم وأمزجتهم المتباينة ، حتى استقرت تلك القوالب التصورية فى أطر معينة .

فمن ذلك تصوير ثور الوحش المنفرد فى ليلة باردة مظلمة ، وصراعه صباحا مع كلاب الصائد ومدى قوته وحذره وصبره ، وكذلك تصوير الحمر الوحشية التى تبحث عن الماء من حيث قوتها وسرعتها وصبرها وجلدها .. وكذلك تصوير النعام والصقور والوعول المعتصمة فى قلل الجبال وصراعها مع الحياة والأحياء .

وكانوا ينظمون هذا التصوير فى قصص بديع ، ويحبكونه فى هيئة صراع بين الأنسان والحيوان والطبيعة ، وكانت نتيجة هذا الصراع أما فوز الأوابد ونجاتها من المهالك المحدقة بها ، أوانكسارها وهزيمتها

أمام قوى الطبيعة والبشر ، وتلك سنة الحياة : فوز ونجاة ، أو هزيمة وهلاك .

وكان الشاعر ينظم وصفه وتصويره لهذه الأوابد في هيئة قصص يبدعه في شعره يعكس فيه مكنون نفسه ، فيأتي المضمون ليعضد هدف الشاعر وغرضه من هذا الشعر ، وكان لكل حالة من حالات النصر والنجاة ، أوالهزيمة والانكسار سياقات معينة توجه دفة القول ، وترسم خطوط النهاية لهذه القصص والأحداث .

وبعد البحث والاستقصاء ، أذهلتني المفاجأة ... فعلى الرغم من كثرة الأشعار التي تناول فيها الشعراء الجاهليون والمخضرمون قصة هذا الثور الوحشي ، ومواجهته لكلاب الصيد فإنها تنتهي جميعها بفوز الثور وتغلبه على الكلاب بقتلها ، أو إقصائها ، ونجاته ، وكره سريعاً نشيطاً هارباً بحياته في أسلوب مطرد اطراداً تاماً عند شعراء تلك الفترة؛ لأنها جميعاً تأتي في سياق وصف الناقة والفخر بقوتها ونشاطها وصبرها على الشدائد التي تواجهها في رحلتها ، ما عدا قصيدة واحدة ، وهي قصيدة أبي ذؤيب هذه ؛ لاختلاف سياقها ولم أجد لها أخرى تعضدها ولجأت إلى كتب من تناول هذا الموضوع متهماً نفسي بعدم الدقة في الاستقصاء (١) لعلهم قد وجدوا نماذج تنقض هذا الاطراد فلم

---

(١) ينظر : الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري د/ عباس مصطفى الصالحي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، أولى ١٤٠٢هـ/١٩٨١م ، وكتاب (تطور الشعر القصصي في وصف الأوابد من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي) د/ أحمد محمد النجار ، ط الدار الفنية للنشر والتوزيع القاهرة سنة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، وينظر : كتاب أساليب الصناعة في الشعر الجاهلي للمؤلف نفسه ، طبعة الصدر للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٩٢م .

أجد أحداً منهم عثر أو تناول نموذجاً آخر ينقض هذا الاطرادالذى أشرت إليه هنا.

النص الوحيد الذى قتل فيه الثور ، وكان قتله بسهام صاحب الكلاب (الصائد) بعد هزيمة كلابه من الثور هو فى قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أولاده ، ومحاولته التسلى والتصبر بالتأمل فى فلسفة الحياة والموت عند الكائنات عامة ، فسياقها يختلف عن السياق السابق الذى ذكرته ، وهذا لا ينقض الاطراد السابق فى سياقه .

والذى ينطبق على الثور هنا ينطبق تماماً على حمر الوحش مع الصائد لا يختل منه شىء ، بل تكاد تتطابق تطابقاً تاماً مع نفس السياقات والأغراض .

ففى سياق وصف الناقة درج الشعراء على تشبيهها بحمر الوحش المتأبدة فى قوتها ومتانتها وسرعتها ، وقد جاء هذا فى أسلوب قصصى مطرد - أيضاً - حيث تشبه الناقة بحمر الوحش التى تبحث عن الماء فتجده ، ولكن هناك يرصدها صياد ماهر فى قتره الذى أعده لذلك ، فيفجأها عند وردها بسهامه الفتاكة القاتلة ، ولكن رميته تخيب ، وتنجو الحمر من سهامه ، فتنطلق تعدو فى سرعة رهيبة مثيرة للحصى والتراب والغبار ، هاربة من الموت المحقق فى هذا الموطن وتترك الصياد يتحسر ويتلهف على ما فاته ، وهكذا يكتب لها النجاة ، وهو عامة شعر الطرائد فى هذا السياق .

والطريف أن معظم القصائد التى وردت فيها قصة الثور وردت فيها كذلك قصة حمر الوحش على أساس تشبيه الناقة فى قوتها وسرعتها

بكليهما حال فراره ونجاته .

أما إذا كان السياق رثاءً أو موعظة - كما ذكر الجاحظ - فإن الصائد يتمكن من قتل هذه الحمر ، وينجح فى إصابة هدفه ، وكأن الموت يدرك كل حى مهما بلغت قوته وسرعته وحذره ، كما حدث فى القصيدة الفريدة ذاتها لأبى ذؤيب ، وقد عثرت على نموذج آخر فى هذا السياق لصخر الغى الهذلى وهو قريب من نص أبى ذؤيب حيث تقتل فيه الحمر .

وإنما قدمت الحديث عن الثور على الحديث عن الحمر لأن المفارقة فيها عجيبة والموعظة أتم حيث إنه انتصر على عدوه الأول وهو كلاب الصيد ، ويجهز عليها ولكن القدر لا يتركه ، فيبرز له صاحب الكلاب ليقتله بسهامه ونبله .. فتكون مساحة التأمل والتدبر فى فلسفة الحياة والموت أكبر وأوسع ، بالإضافة إلى محاولة تتبع كلام الجاحظ فى هذا الشأن - وهو خاص بالحديث عن البقر - والذى انطلقت منه إلى هذه المسألة أو هذا المبحث .

والطريف أن قصة الثور والحمر الوحشية لم ترد كثيراً عند شعراء القرى العربية كشعراء المدينة ومكة والطائف واليمامة ، وإنما جاء جلها عند شعراء البادية الذين كانوا يعايشونها كثيراً ، وكان عليها اعتمادهم - أحياناً - فى القوت والحياة .

انتصار الثور على الكلاب ونجاته :

غالباً ما يكون هذا فى قصة الثور الوحشى مع كلاب الصيد فى سياق وصف الناقة حيث درج الشعراء على تشبيه ناقتهم التى يرتحلون عليها فى قوتها وصلابتها وسرعتها بأوابد الوحش من الحمر والبقر والنعام .

فإذا كانت السرعة هى الصفة الملحوظة فى الناقة إلى جانب اتصافها بالقوة ومتانة التركيب والصلابة ، فإنا وجدانهم وهم يغدون السير على الطريق ، ويلمحون مشاهد الصحراء ، يعقدون صلة بين الناقة وبين الثور المتأبد فى القفر ، إذ تجمع بينهما تلك الصفات ، ثم يستطردون إلى سرد قصته مع الصياد وكلابه معجبين بصورته وسرعته وقوته ، وقد ظهر أمام عيونهم على البعد بألوانه المختلفة ، موشى الأكارع ، ملمعاً ، أحم الخد ، يعدو وحيداً ، طاوياً ، مروع القلب كلما أحس نباة عند الصباح أو كلما أصابه وابل أو هبت عليه ريح باردة بالليل ، فيبيت فى قلق واضطراب آوياً إلى حفرة بأصل شجرة الأرطى، وإذا ما أشرقت الشمس تطلع هنا وهناك غدا منبتاً فى الصحراء جذلاً مجداً يترقب ما يخشاه حتى يبلغ مأمنه .

وقصة هذا الثور تتسم ــ غالباً ــ بالإيجاز فى الوصف مع تركيز الأحداث ، والعمل على تلاحمها فى اطراد ، حتى تبلغ ذروتها التى تنتهى بنتيجة الصراع بين الثور والكلاب ، إذ ينتصر القوى وتكتب له النجاة ، ومن ثم يمضى إلى طيته جذلاً بعد أن جابه الأخطار ، واجتاز الصعاب ، وكذلك ناقة الشاعر سواء أعاد إلى ذكرها بعد هذا

الاستطراد ــ إن كان على ارتحال ــ أم مضى لنيته ودخل فى موضوع جديد ؟ أم أنه يكتفى فى قصيدته بهذا التصوير وهذا القص إن كان ذلك لإشباع رغبة النفس الشاعرة من الوصف والتصوير والقصص الذى يرمز به إلى بعض القيم والمعانى مثيراً فى كل هذا ما نعتبره " مضموناً " تدل عليه طبيعة الحياة فى عالم الصحراء القائم على تنازع البقاء ، وعلى أن الحياة مكفولة للأقوياء . (١)

وهذه القصة بتفاصيلها أصبحت النموذج المحتذى فى قصة الثور الذى تشبه به ناقة الشاعر التى يرتحل عليها ، وكل شاعر يفيض فيها من أشراقات نفسه وخيالاته حسب الحالة النفسية للشاعر ، سواء أكانت فرحة مرحة أم مهمومة حزينة ، أم مغضبة ثائرة ؟ كما سنرى .

" على أن أجمل ما فى هذا التصوير الجانب القصصى الذى يضفى على الصورة جمال الحركة ، وقوة الانفعال ، ووحدة الصراع الذى ينتهى بغلبة القوى ، وهزيمة الضعيف كأنهم يلمحون مثلهم الأعلى، وهو : القوة التى تفرضها الحياة فى مثل هذه البيئة الموحشة القفر ، إلى جانب تصوير الناقة أو الفرس بهذه الصفات أو ببعضها وهم بصدد الرحيل ، والتعرض للمتالف وركوب المخاطر " (٢) إلى جانب أنها كانت تعطى الشعراء الفرصة ليحلقوا مع فنهم ويظهروا موهبتهم فى مجال التصوير والتعبير ، بالإضافة إلى قطع الرتابة فى السرد والوصف المباشر

---

(١) تطور الشعر القصصى فى وصف الأوابد د/ أحمد النجار ص٨٣ (بتصرف) .

(٢) أساليب الصناعة ص ٤٢ .

" وقصة صراع ثور الوحش مع الصياد وكلابه الضارية في الشعر قديمة ، تمتد في الماضي حتى تصل إلى عصر امرئ القيس ، ذلك الرجل الذي رسم الخطوط الأولى لفن الطرد ، فقد وجدنا هذا الشاعر يعرج على وصف الطرد في كثير في قصائده التي صورت جوانب كثيرة من حياته ، وكان امرؤا القيس شديد الحب لفرسه ، كثير الاعتزاز بناقته ، ولذا أكثر من وصفها " [١]

فمن ذلك قوله يشبه ناقته في قوتها وسرعتها بأوابد الوحش قال:[٢]

كأني ورحلي فوق أحقب قارب ∴ بشربة أو طاو بعرنان موجس[٣]

تعشى قليلاً ثم أنحى ظلوفه ∴ يثير التراب عن مبيت ومكنس

يهيل ويذري تربها ويثيره ∴ إثارة نباث الهواجر مخمس[٤]

فبات على خد أحم ومنكب ∴ وضجعته مثل الأسير المكردس

وبات إلى أرطاة حقف كأنها ∴ إذا ألثقتها غبية بيت معرس

فصبحه عند الشرق غدية ∴ كلاب ابن مر ، أو كلاب ابن سنبس

مغرثة زرقاً كأن عيونها ∴ من الذمر والايحاء نوار عضرس[٥]

فأدبر يكسوها الرغام كأنه ∴ على الصمد والآكام جذوة مقبس

---

(١) الصيد والطرد في الشعر العربي د/ عباس مصطفى الصالحي ص ٩٣ .

(٢) ديوان امرئ القيس تحيق / حنا الفاخوري ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩هـ/١٩٩٨م ، ص ٩٧ وما بعدها .

(٣) الأحقب : حمار الوحش الأبيض الحقوين ، القارح : المسن ، الطاوي : ثور الوحش النشيط القوي .

(٤) نباث الهواجر : الذي يحفر الأرض في وقت الهاجرة طلباً لبرد الثرى .

(٥) مغرثة : المجوعة ، الذمر : الحض والإغراء ، العضرس : شجر أحمر النوار .

وأيقـــن إن لاقينـــه أن يومـــه ∴ بـذى الرمـث إن ماوتنـه يـوم أنفـس

فأدركنـه يأخـذن بالسـاق والنسـا ∴ كمـا شـبرق الولـدان ثـوب المقـدس

وغـورن فـى ظـل الغضـى وتركنـه ∴ كقـرم الهجـان الفـادر المتشـمس(١)

فالشاعر يشبه ناقته بحمار الوحش ، ثم يتراجع بسرعة خاطفة ليشبهها بثور الوحش ، ويعيش مع ذلك الحيوان ، وهو يحفر بظلوفه مربضاً يبيت فيه تحت شجرة أرطى حين جن عليه الليل ، وهى أحداث ثابتة فى قصة الثور ، ثم ها هو ينام على خده الملمع متجمعاً وكأنه أسير موثق فى قيده وحبسه ، وهى صورة توحى بالانقباض ، على عكس الصوة التى جاءت فى البيت التالى مباشرة ، حيث صور مبيته آمناً تحت شجرة الأرطى التى بللها الندى بالرجل المعرس الآمن فى بيت عرسه وهى صورة توحى بالأمان والسكينة .. فهو لم يبت مروعاً خائفاً يتلفت يمنة وشمالاً كلما أحس نبأة أو صوتاً ، حيث اعتاد الشعراء على تصويره كذلك .

ولكن أمانه وسكينته لم تدم طويلاً فسرعان ما صبحته كلاب الصيد مع طلوع الشمس ، وهى ليست مجرد كلاب ، وإنما كلاب مجوعة مهتاجة محمرة العيون من الذمر والتحريض ، وكأن عيونها زهر العضرس الأحمر ، ثم دخل فى وصف صراعه معها ، فهو أولاً هرب منها فى خفة وسرعة وكأنه فى صعوده على الآكام شعلة نار ملتهبة ، ولكن الكلاب لم تتركه بل تتبعه تنهشه وتقطع انساءه وجلده ، وتتعلق به تماماً كمل يفعل الولدان الذين يتعلقون بالراهب العائد من

---

(١) غورن : دخلن ، الفادر : المنفرد المبعد عن الضراب ، المتشمس : القوى الشديد .

الحج فيمزقون ثوبه ، التماساً لبركته ودعائه ، وهى صوة توحى بثقافة الشاعر ومشاهده التى رآها فى الحواضر التى تنتشر فيها الديانة النصرانية وبعد أن تعبت الكلاب من ملاحقته ونهشه على غير جدوى تتركه وتلقى بأجسادها فى ظل بعض الأشجار ، فينطلق ناجياً كالفحل الكريم من الإبل ، والشاعر هنا لم يعرض لنا دفاع الثور عن نفسه أو قتله أو أصابته لبعض هذه الكلاب كما هى عادة الشعراء فى ذلك ، وإنما اكتفى بتصوير فراره وهربه ، ولعل الذى كان يعنيه - هنا - هو وصف سرعته وقوته فى هربه ليحقق وجه الشبه بينه وبين ناقته .

ولعل أبرز مما يميز هذه الأبيات هى تلك الصور الرائعة التى ساقها الشاعر فى أبياته ، والتى تضفى على تلك القصة ألواناً من الحيوية والافتنان .

وقد وردت قصة الثور فى أكثر من قصيدة لهذا الشاعر الكبير ، لأنه كان مغرماً بالصيد والطرد إذ هى عادة الملوك وأبنائهم ، كما يتضح من سيرته وأشعاره ، بل لعله رائد هذا الفن فى العصر الجاهلى بلا منازعة .

وقد توارد الشعراء بعد امرئ القيس على سرد قصة ثور الوحش مع الكلاب على هذا النمط الذى جاء فى أبيات امرئ القيس ملتزمين الخطوط العريضة التى سلكها وإن أضاف كل منهم إلى هذا القص من فنه وروحه ، أو نقص حسب ما ينسجم مع تجربته ، وذوقه وغرضه ـ وإن كان لم يبعد عن هذا الأصل ـ بما يتلائم مع طبيعة التطور والرقى.

فمن ذلك قول أوس بن حجر فى ناقته - أيضاً - من قصيدته فى هجاء بنى برد ، وكانوا منعوا ناقه من الورد : [(١)]

كأنهـا ذو وشـوم بـين مأفقـة	∴	والقطقطانة والبرعـوم مـذعور [(٢)]
أحـس ركـز قنـيص منـى بنـى أسـد	∴	فانصـاع منثويـاً والخطـو مقصـور
يسعى بغضف كأمثال الحصى زمعاً	∴	كـأن أحناكهـا السـفلى ماشـير [(٣)]
حتـى أشـب لهـن الثـور مـن كثـب	∴	فأرسـلوهن لم يـدروا بمـا ثـيروا
ولى مجـدا وأزمعـن اللحـاق بـه	∴	كـأنهن بجنبيـه الزنـابير
حتـى إذا قلـت نالتـه أوائلـها	∴	ولـو يشـاء لنجتـه المثـابير
كـر عليهـا ولم يفشـل يهارشـها	∴	كأنـه بتـواليهن مسـرور
فشـكها بـذليق حـده سـلب	∴	كأنـه حـين يعلـوهن موتـور
ثـم اسـتمر يبـارى ظلـه جـذلاً	∴	كأنـه مرزبـان فـاز محبـور

ونلاحظ أن الثور ــ هنا ــ مذعور ــ عكس ثور امرئ القيس ــ كما أن الشاعر طوى بعض أحداث هذه القصة والتى تتعلق بمبيت الثور وليلته السالفة ، كما هى العادة عند الشعراء ، على حين نجده قد ركـز بعض الشيء على انتصار الثور ونجاته بعد معركته مع كلاب الصيد وفراره فرحاً مسروراً متباهياً ، وكأنه أحد أمراء الأعـاجم المزهـوين بالنصر ؛ لأنه كان مهتاج النفس حيث كانت قصته هذه كمقدمة لموضوع

---

(١) ديوان أوس بن حجر تحقيق د/ محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢) ذو وشوم : صفة للثور الوحشى ، مأفقة والقطقطانة والبرعوم : مواضع .

(٣) الغضف : جمع أغضف وهو الكلب الذى استرخت أذناه ، ماشير : مناشير .

قصيدته وهو هجاء بنى برد الذين منعوا ناقته الورود بذى قار ، ولعل هذا - أيضاً - هو سبب إيجازه فى سرد أوصاف الثور وما حوله من وصف مناظر الطبيعة فقد كان معجلاً عن الوصف والتصوير إذ كان فكره مشغولاً بموضوعه الأساسى الذى أنشأ القصيدة من أجله . (١)

وقد تكررت هذه القصة ــ أيضاً ــ فى شعر أوس بملابساتها وأحداثها ونهايتها فى غير هذه القصيدة . (٢)

ومن ذلك قول النابغة الذبيانى يصف ناقته : (٣)

كأنما الرحل منها فوق ذى جدد ∴ ذب الرياد إلى الأشباح نظار (٤)

مطرد ، أفردت عنه حلائله ∴ من وحش وجرة أو من وحش ذى قار

مجرس وحد جأب أطاع له ∴ نبات غيث من الوسمى مبكار(٥)

سراته ما خلا لبانه لهق ∴ وفى القوائم مثل الوشم بالقار

باتت له ليلة شهباء تسفعه ∴ بحاصب ذات إشعان وأمطار(٦)

وبات ضيفاً لأرطاة وألجأه ∴ مع الظلام إليها وابل سار

حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته ∴ وأسفر الصبح عنه أى إسفار

---

(١) ينظر المرجع السابق ص ٨٩ .

(٢) ينظر : ديوانه ص ٢ .

(٣) ينظر : ديوان النابغة الذبيانى ، تحقيق / كرم البستانى ، ط دار صادر ، بيروت ، من دون تاريخ ، ص ٥١ : ٥٤ .

(٤) جدد : طرائق ، وأراد به الثور الوحشى المخطط ، الرياد : الارتياد .

(٥) مجرس : الخائف لسماعه صوت الإنسان ، جأب : صلب شديد .

(٦) إشعان : ما تناثر من ورق العشب بعد يبسه .

أهــوى لــه قــانص يســعى بأكلبــه ∴ عــارى الأشــاجع مــن قنــاص أنمــار [١]
مخــالف الصــيد هبــاش لــه لحــم ∴ مــا إن عليــه ثيــاب غــير أطمــار
يسعى بغضف براهـا فهـى طاويـة ∴ طــول ارتحــال بهــا منــه وتســيار
حتــى إذا الثــور بعــد النفــر أمكنــه ∴ أشــلى وأرســل غضــفاً كلــها ضــار [٢]
فكــر محميــة مــن أن يفــر كمــا ∴ كــر المحــامى حفاظــاً خشــية العــار
فنتــك بــالروق منــه صــدر أولهــا ∴ فشــك المشــاعب أعشــاراً بأعشــار [٣]
ثــم انثنــى بعــد للثــانى فأقصــده ∴ بــذات ثغــر بعيــد القعــر نعــار
وأثبــت الثالــث البــاقى بنافــذة ∴ مــن باســل عــالم بــالطعن كــرار
وظــل فــى سـبعة منهــا لحقــن بــه ∴ يكــر بــالروق فيهــا كــر إســوار
حتــى إذا مــا قضــى منهــا لبانتــه ∴ وعــاد فيهــا بإقبــال وإدبــار
انقــض كالكوكــب الــدرى منصــلتاً ∴ يهــوى ويخلــط تقريبــاً بإحضــار
فــذاك شــبه قلوصــى إذ أضــربها ∴ طــول الســرى ، والســرى بعــد أســفار

فالنابغة كانت نفسه فرحة جذلة فى هذه القصيدة الرائعة ، بدليل غزله الرائع الذى سبق هذه القصة [٤] ، ومن ثم تأنق فى سرد أحــداث قصته هذه ، حيث أفاض فى وصف الثور وقد زاد على ما ســبقه بــأن جعله وحيداً منفرداً ، ومفزعاً (مجرس) ، وملمعاً ، وإن بات فى أصل

---

(١) أهـوى لـه : انقض عليه ، عـارى الأشـاجع : ظاهر عصب اليد ، أنمـار : قبيلـة مشـهورة بالصيد .

(٢) أشلى : دعا كلابه للصيد ، الضارى : المعتاد على الصيد .

(٣) الروق : القرن ، المشعب : النجار الذى يشعب الخشب

(٤) ينظر ديوانه ص ٤٩ .

أرطاة ، إلا أن ليلته كانت باردة عاصفة ممطرة ، كما أن الوادى الــذى يرعى به كان معشباً غنياً ، كما أنه أفاض بعض الشىء فــى وصــف الصائد ، وعدد الكلاب ، وفصل بعض هذا الصراع الذى انتهى بانتصار عظيم للثور الذى حامى عن حقيقته ، ونجاته وفراره مندفعاً أقــوى مــا يكون الاندفاع كأنه كوكب هوى من السماء ، وقد ظهرت عليه علامات الفرح والسرور والارتياح عندما أخذ ينوع فى جريــه بــين التقريــب والإحضار ، وهو عدو فيه وثب ، وإنما يفعل ذلك الأقوياء ، ومن كانت له خفة وطرب ، وكان هذا الثور جذلان ، ولما قضى الشاعر من هــذه القصة وطره وصفاً وتصويراً ، وحكاية لهذا الصراع الذى أداره الثور والكلاب ، عاد إلى ذكر ناقته التى تشبه هذا الثور القــوى (الجــأب) الغليظ المفزع على الطريق ، المنتصر فى معركة الحيــاة ،و المتغلــب على كل ما اعترضه من عقبات وصعاب و هو يجتــاز هــذه المفــازة البعيدة الأطراف ، أو (المهمة النازح) كما قال ، وكذلك كانــت ناقــة الشاعر قوية ضخمة غليظة ، ماضية على الهول ، تهديه إلــى القصــد مهما طال بها السرى بالليل والتهجير بعد الإبكار :

فــذاك شــبه قلوصــى إذ أضــربها ∴ طول السرى ، والسرى بعد إبكار (١)

فالنابغة هنا قد زاد على قصة ثور الوحش بعض التفصــيلات الدقيقة التى سبق بها وتعد تطوراً لهذا القصص المتطرد فى هذا السياق.

وفى معلقته التى اعتذر فيها للنعمان ومدحه تطرق النابغة إلــى ذكر قصة الثور مع الكلاب وفى نفس السياق ــ أيضا ــ وهــو ســياق

---

(١) ينظر : تطور الشعر القصصى فى وصف الأوابد : ص ٩٧ .

وصف الناقة ، وإن كانت أقل فى عدد أبياتها ، مع اختلاف فى نظمها وهدفها ؛ لأنها جاءت فى قصيدة مليئة بالهموم والأحزان بسبب وعيد النعمان له ، وتعد كذلك من أروع ما جاء فى هذا الشأن بدأها بقوله : (١)

كأنى ورحلى وقد زال النهار بنا ∴ يوم الجليل على مستأنس وحد

وانتهت قصة الثور – أيضاً – بمثل ما انتهت به قصته الأولى.

ومن أروع ما جاء فى ذلك قصيدة ضابئ بن الحارث البراجمى(٢) فى نفس السياق – أيضاً – وكان صاحب صيد وقنص ، قال : (٣)

كأنى كسوت الرحل أخنس ناشطاً ∴ أحم الشوى فرداً بأجماد حوملاً
رعى من دخوليها لعاعاً فراقه ∴ لدن غدوة حتى تروح موصلا
فصعد فى وعسائها ثمت انتمى ∴ إلى أحبل منها وجاوز أحبلا
فبات إلى أرطاة حقف تلفه ∴ شامية تذرى الجمان المفصلا
يوائل من وطفاء لم ير ليلة ∴ أشد أذى منها عليه وأطولا
وبات وبات الساريات يضفنه ∴ إلى نعج من ضائن الرمل أهيلا
شديد سواد الحاجبين كأنما ∴ أسف صلى نار فأصبح أكحلا
فصبحه عند الشروق غدية ∴ أخو قنص يشلى عطافاً وأجبلا

---

(١) ينظر : ديوانه ص ٣١، ٣٢ .

(٢) ضابئ بن الحارث البراجمى التميمى ، شاعر جاهلى مخضرم ، هجا قوماً فحبسه عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ومات فى سجنه .

(٣) الأصمعيات للأصمعى ، تعليق د/ محمد حمود ، طبعة دار الفكر اللبنانى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م ، رقم ٦٣ ص ١٧١ .

فلمـــا رأى أن لا يحـــاولن غـــيره ∴ أراد ليلقـــاهن بالشـــر أو لا

فجـــال علـــى وحشـــيه وكأنهـــا ∴ يعاسـيب صـيف إثـره إذ تمهـلا

فكــر كمــا كــر الحــوارى يبتغــى ∴ إلى الله زلفــى أن يكــر فيقـــتلا

وكــر ومـــا أدركنــه غــير أنـــه ∴ كــريم عليــه كبريـــاء فـــأقبلا

يهــز سـلاحاً لم يــر النـــاس مثلـــه ∴ سـلاح أخــى هيجـا أدق وأعــدلا

فمارســـها حتـــى إذا احمـــر روقـــه ∴ وقـد عـل مـن أجـوافهن وأنهـلا

يســـاقط عنـــه روقـــه ضـــارياتها ∴ سقاط حديـد القـين أخـول أخـولا

فظــل ســراة اليــوم يطعــن ظلـــه ∴ بــأطراف مــدريين حتــى تفلـــلا

وراح كســـيف الحمـــيرى بكفـــه ∴ نضـا غمـده عنـه وأعطـاه صـيقلا

وآب عزيـــز الـــنفس مـــانع لحمـــه ∴ إذا مــا أراد البعــد منهــا تمهــلا

ولا يخفى أنه استقصى كثيراً من جوانب هذه القصة ، وأضـــاف إليها زيادات جديدة وطبعها بطابع روحه الإسلامى وخاصة فى قوله :

فكــر كمــا كــر الحــوارى يبتغــى ∴ إلى الله زلفــى أن يكــر فيقـــتلا

فما أشد هذا الهجوم ؛ لأنه شبهه بهجوم المجاهد المخلص لوجـــه الله تعالى الذى يبتغى الشهادة ، والجديد - أيضاً - فى هذه القصـــة أنـــه جعل الثور هو الذى بدأ الهجوم ، ثم كانت مشيته فى نهاية الملحمة مشية الآمن المطمئن ، ولذلك لم يثر غباراً ،و لم ينقض انقضاض الكوكـــب ، أو ينصاع هارباً كما كان يقال فيما سبق . (١)

ولم أفصل كثيراً فى تحليل هذا القصص ، كما أننى لم أتوقف مع

---

(١) ينظر : تطور الشعر القصصى فى وصف الأوابد ص ١٠٧ .

بيان مواضع الجدة فى تطور هذا الفن - أيضاً - لأنه قد تناول ذلك كثير من الدارسين ، وأخص منهم الدكتور / أحمد النجار فى كتابه السابق .[١]

هذا وقد تكررت هذه القصة بأحداثها وملابساتها فى كثير من شعر تلك الفترة فقد وردت عند عبيد بن الأبرص[٢] ، وعلقمة بن عبدة[٣] وزهير [٤] ، وبشر بن أبى خازم [٥] ، ولبيد [٦] ، والأعشى [٧] ، والحطيئة[٨] ، وكعب بن زهير [٩] ، وسويد بن أبى كاهل [١٠] ، وسحيم [١١] ، وعبدة بن الطبيب [١٢] .

---

(١) المرجع السابق

(٢) ينظر ديوان عبيد بن الأبرص ، دار صادر ، بيروت ، من دون ، ص ٥٩ .

(٣) ينظر ديوان علقمة بن عبده ، دار صادر ، بيروت ، ص

(٤) شرح شعر زهير بن أبى سلمى لثعلب ، تحقيق د/ فخر الدين قباوة ، طبعة دار الفكر ، دمشق، ودار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م ، ص ٣٨ ،٤٤ ، ٢٧٩ .

(٥) المفضليات رقم٩٧ ص ٣٣٥ .

(٦) ديوان لبيد بن أبى ربيعة العامرى ، دار صادر ، بيروت ، من دون ، ص ٣٨ ، ١٠٥ ، ١١٥ ، ٢٠٨ .

(٧) ديوان الأعشى ، دار صادر ، بيروت ، من دون ، ص ١٤ .

(٨) ديوان الحطيئة رواية أبى عمرو الشيبانى ، شرح أبى سعيد السكرى ، دار صادر ، بيروت ، من دون ، ص ٢٨ .

(٩) ديوان كعب بن زهير ، قدم له د/ محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص

(١٠) المفضليات رقم ٤٠ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(١١) ديوان سحيم (عبد بنى الحسحاس) تحقيق / عبد العزيز الميمنى ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(١٢) المفضليات رقم ٢٦ ص ١٣٨ – ١٤٠ .

وكلهم جرى على هذا النسق ، وانتهت قصصهم بتلـك النهايـة السعيدة ، وهى فوز الثور ونجاته ، وفراره فرحـاً مسـروراً بنجاتـه وانتصاره ؛ لأنهم كانوا فى سياق تشبيه ناقتهم التـى يرتحلـون عليهـا ، وينتجعون أطراف الصحراء ، وتبلغهم مقاصدهم ومآربهم فى قوتها وصبرها وتحملها مشاق السفر وصعوبات الصحراء بهذا الثور القوى السريع النشيط ، فكان لابد أن ينتهى هذا الصراع بنهاية سعيدة ، كما تبلغهم نوقهم ورواحلهـم مقاصدهم فتنتهى رحلاتهم بنهاية سعيدة ، وهذا كان مـن دواعـى فخـرهم وتمدحهم .

وهناك قصيدة لامرئ القيس ــ أيضاً ــ تحدث فيها عن قصة الثـور مع كلاب الصيد ، وانتهت بفوز الثور على الكلاب ونجاته ، وهى طريفة فى موضوعها ، حيث إنها لم تأت فى سياق وصف الناقة كما هو المعتاد فى هذا النهج ، وإنما جاءت فى سياق وصف رحلة صيد له مـع صـياد وأكلبـه ، والعادة فى هذا السياق أن تقتل الطرائد ، ويرجع بها الصيادون وهى محملـة على كواهل خيولهم ورواحلهم ، فيأكلون ويشربون عليها بقية يومهم ، كمـا سيأتى .

فقال : (١)

وقـد أغتـدى ومعـى القانصـان ∴ وكـل بمربـأة مقتفـر (٢)

فيـدركنا فغـم داجـن ∴ سميـع بصـير ، طلـوب ، نكـر (٣)

ألـص الضـروس حنـى الضلـوع ∴ نبـوع طلـوب نشـيط أشـر (٤)

فأنشـب أظفـاره فـى النسـا ∴ فقلـت : هبلـت ألا تنتصـر !

---

(١) ديوانه ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) المربأة : مكان يصعد فيه من الجبل ، المقتفر : الذى يتبع آثار الوحش .

(٣) فغم : المولع بالشىء الحريص عليه ويريد به الكلب ، الداجن : المعتاد على الصيد .

(٤) الـص الضـروس : أى ملتصـقة بعضـها إلى بعـض ، حنـى الضـلوع : أى ضـلوعه محنية .

فكــــر إليـــــه بمبراتــــــه ∴ كمــا حــل ظهــر اللســان المجــر

فظـــل يـــرنح فـــى غيطـــل ∴ كمـــا يســـتدير الحمــار النعــر

ولعل امرأ القيس أعجبته هذه القصة ، وهذا الصراع من أجل البقــاء فى تلك البيئة التى تعتمد أول ما تعتمد على القوة والنضال فاســتطرد إليهــا عقب غزله الماجن ودخوله على إحدى الحرائر ، بعد أن عيرته صاحبته كبره وشيبه .

ويلحق بقصة الثور قصة البقرة الوحشية التى هاجمتها كلاب الصيد - أيضاً - فمن ذلك قول لبيد بن ربيعة العامرى يصف ناقته : [1]

بجســـرة تنجـــل الظـــران ناجيـــة ∴ إذا توقـــد فـــى الديمومـــة الظـــرر[2]

كأنهــــا بعــــدما أفنـــت جبلتهـــا ∴ خنســاء مســبوعة قــد فاتهــا بقــر[3]

تنجـــو نجـــاء ظلـــيم الجـــو أفزعـــه ∴ ريـــح الشـــمال وشـــفان لهـــا درر[4]

باتـــت إلى دف أرطـــاة تحفـــره ∴ فـــى نفســها مــن حبيــب فاقــد ذكــر

إذا اطمأنـــت قلـــيلاً بعـــدما حفـــرت ∴ لا تطمـــئن إلى أرطاتهـــا الحفـــر

تبنـــى بيوتـــاً علـــى قفـــر يهـــدمها ∴ جعــد الثــرى مصــعب فــى دفــه زور

ليلتهـــا كلـــها حتـــى إذا حســـرت ∴ عنهــا النجــوم وكــاد الصــبح ينســفر

غـــدت علـــى عجـــل والـــنفس خائفـــة ∴ وآيـــة مـــن غـــدو الخـــائف البكـــر

لاقـــت أخـــا قـــنص يســـعى بأكلبـــه ∴ شـــثن البنـــان لديـــه أكلـــب جســـر[5]

ولـــت فأدركهـــا أولى ســـوابقها ∴ فأقبلــت مــا بهـــا روع ولا بهـــر

فقاتلـــت فـــى ظـــلال الـــروع واعتكـــرت ∴ إن المحـــامى بعـــد الـــروع يعتكـــر

---

(١) ديوانه ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) الجسرة : الناقة الضخمة ، تنجل : ترمى به ، الظران : الحجارة الملساء ، الديمومة : الأرض المستوية .

(٣) جبلتها : السنان ، الخنساء : بقرة قصيرة الأنف ، مسبوعة : أكل السبع ولدها .

(٤) الظليم : ذكر النعام ، الجو : المطمئن من الأرض ، شفان : الريح الباردة .

(٥) شسن البنان : أى غليظ الأصابع ، جسر : أى جسورة .

وقصة البقرة ــ هنا ــ تزيد على قصة الثور بأنها مسبوعة : أى أكلت السباع وليدها ، فهى مفزعة ، وفاتها البقر الذى معها ، فقد جمعت بين فقدها لولدها ، وتخلفها عن سربها الذى تسايره ، فهى والهة، وحيدة ، مستوحشة ، لا تقر فى مكان ، وقد ركز الشاعر على قلقها وفزعها بقوله :

غدت على عجل والنفس خائفة ∴ وآية من غدو الخائف البكر

والشاعر لم يقف ــ هنا ــ عند فرارها بعد معركتها مع الكلاب، حيث يكون الشبه بينها وبين ناقته فى السرعة والقوة ، كما هى العادة فى مثل هذا القصص اكتفاءً بتطرقه إلى ذلك فى قوله :

تنجو نجاء ظليم الجو أفزعه ∴ ريح الشمال وشفان لها درر

أى أن سرعتها فى الجرى كسرعة النعام الذى أفزعته الرياح والأمطار فهو يسرع لكى يصل إلى بيضه وبيته .

وقد تكررت هذه القصة بأحداثها وملابساتها فى معلقته [١] ــ أيضاً ــ وقد كان لبيد مغرماً بوصف الناقة ، كذلك وردت عند كل من علقمة بن عبدة [٢] ، وزهير[٣] ، والأعشى [٤] .

---

(١) ينظر ديوانه ص ١٧١ – ١٧٤ .

(٢) شرح ديوانه ص ١٦٣ : ١٦٦ .

(٣) ينظر : ديوانه ص ٦ .

(٤) ينظر : المفضليات رقم ١١٩ ، ص ٣٩٣ .

نجاة الحمر الوحشية من الصائد الكامن لها على مورد الماء

وذلك ــ أيضاً ــ فى نفس السياق السابق ، وهو سياق وصف الناقة بالقوة والسرعة والنشاط .

فمن ذلك قول الأعشى متحدثاً عن ناقته الضخمة القوية : [١]

عرندسة لا ينفض السير غرضها ∴ كأحقب بالوفراء جأب مكدم [٢]

رعى الروض والوسمى حتى كأنما ∴ يرى بيبيس الدو إمرار علقم

تلا سقبة قوداء مشكوكة القرا ∴ متى ما تخالفه عن القصد يعذم [٣]

ما دنا منها التقته بحافر ∴ كأن له فى الصدر تأثير محجم

إذا جاهرته بالفضاء انبرى لها ∴ بإلهاب شد كالحريق المضرم

وإن كان تقريب من الشد غالها ∴ بميعة فنان الأجارى مجذم [٤]

فلما علته الشمس واستوقد الحصى ∴ تذكر أدنى الشرب للمتيمم

فأوردها عيناً من السيف رية ∴ بها برأ مثل الفسيل المكمم

بنا هن من ذلان أن ليس شارباً ∴ من الماء إلا بعد طول تحرم

وصادف مثل الذئب فى جوف قترة ∴ فلما رآها قال : يا خير مطعم

ويسر سهماً ذا غرار يسوقه ∴ أمين القوى فى صلبه المترنم

---

(١) ديوان الأعشى ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) العرندسة : أى ناقة شديدة عظيمة ، الجأب : الحمار الغليظ ، مكدم : أى معضض من العراك .

(٣) السقبة : الآتان ، القوداء : طويل الظهر والعنق ، يعذم : يعض .

(٤) التقريب : نوع من العدو ، غالها : خدعها ، الميعة : أول الجرى وأنشطه ، الفنان : الحمار الوحشى ، مجذم : أى الأسرع فى السير .

فمـــر نضـــى الســـهم تحـــت لبانـــه ∴ وجـــال علـــى وحشـــيه لم يثمـــثم[١]

وجـال وجالـت ينجلـى الـترب عنهمـا ∴ لــه رهــج فــى ســاطع اللــون أقــتم

كـأن احتـدام الجـوف فـى حمـى شـده ∴ ومـــا بعـــده مـــن شـــده غلـــى قمقـــم

فـــذلك بعـــد الجهـــد شـــبهت نـــاقتى ∴ إذا مـــا ونـــى حـــد المطـــى المخـــرم[٢]

فبعد أن أفاض فى وصف ناقته القوية السريعة الغليظة (الوجناء) ألتمس لها شبيهاً من الطرائد القوية ، فوجده في الحمـــار (الأحقـــب ، الجأب المكدم) الذى رعى الروض فى الصيف ، ثم رعى الوسمى فى أول الخريف ، وكأنه أحس بالفارق بين تلك المراعى الرطبة ، ومراعى الصيف التى أيبستها الهواجر حتى صارت مرة كالعلقم ، وقد أكل منهـــا ما يشاء حتى صار إلى الضخامة والامتلاء ، ثم إنه يصوره وقد تتبـــع إحدى هذه الأتن (تلا سقبة قوداء مشكوكة القرا) ونلاحظ أنها - هنا - واحدة فقط على غير العادة فى تعدد الأتن التى يتبعن الحمار كما صور ذلك الشعراء ، ثم إن الحمار استشعر الحاجة إلى الماء ، فتذكر أقـــرب مورد ، فأسرع إليه وقد رأى حوله بيوت الصائد أو ما يعـــرف باســـم (القتر) أشبه ما تكون بالنخل الصغيرة ولكنها كافية ليستتر فيهـــا ذلـــك الصياد من (ذلان) الذى يقعد لها كل مرصد ويتهدد تلك الهوادى بالقتل عندما ترد الماء ، وما أن رأى الصياد هذه الحمر حتـــى تهلـــل فرحـــاً وقال : (يا خير مطعم) ، وتتوالى الأحداث عندما يسر الصياد ســـهماً

---

(١) النضـى: نصـل السـهم ، الوحشـى : الجانـب الأيمـن مـن كـل شـىء ، لم يثمـثم : لم يتوقف.

(٢) ونـى : ضـعف ، حـد المطى : أى نشـاطها ، المخـرم : الـذى وضـعت فـى أنفـه الخرامـة التـى يشد فيها اللجام أو الذمام .

ولكنه أخطأ مرماه إذ مر تحت صدر الحمار دون أن يصيبه ، فجال فى المكان ، ومضى ذاهباً دون توقف ، وجالت معه أنثاه ، وأمعنا هرباً ، وهما يثيران الغبار الكثيف المنتشر ، ثم إن الحمار عاودته حرارة العطش من شدة الجرى حتى احتدم جوفه ، وكأنه قمقم يغلى بما فيه ، ولكن لا مناص من أن يتابع الجرى حتى يبلغ مأمنه أولاً مهما بذل من جهد ، وعند ذلك الحد توقف الشاعر عن السرد ؛ لأنه أتم التعبير عن قصده من تشبيه ناقته بهذا الحمار النشيط السريع ، وقد جهدت مثل ما جهد دون أن تعرف الكلال ، فى قوله :

فذلك بعد الجهد شبهت ناقتى ∴ إذا ما ونى حد المطى المخرم[1]

ومن أوفى وأتم ما جاء فى قصة حمر الوحش قصيدة لأوس ابن حجر وتبلغ أكثر من ثلاثين بيتاً [2] ولزهير ــ أيضا ــ قصيدة ذكر فيها قصة الحمار الوحشى ، ولكن الطريف أنه جعله وحيداً وليس كالمعتاد ، حيث يكون معه أتنه ، فقال : [3]

وكأنها صحل الشحيح مطرد ∴ أخلى له حقب السوار ومذنب

وحدا كمقلاء الوليد مكدم ∴ جأب أطاع لها الجميم محنب

ولن أطيل كثيراً فى سرد نماذج لهذا القصص لأنه لا يكاد يخرج عن الخطوط العريضة التى حددتها سلفاً ، وإنما كل شاعر يزيد أو ينقص حسب المقام والغرض العام ، بالإضافة إلى الصور الجزئية

---

(١) ينظر : تطور الشعر القصصى فى وصف الأوابد ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ينظر : ديوان أوس بن حجر ص ٦٧ – ٧٣ .

(٣) شرح شعر زهير ص ٢٧٧ .

والصياغة التى يتفاضل بها الشعراء .

وقد وردت هذه القصة فى شعر كل مـــن امـــرىء القـــيس [١] ، والنابغة [٢] ، وزهير [٣] ، وأوس [٤] ، وكعب بن زهير[٥] ، ولبيد [٦] ، والشماخ [٧] وهو أوصف الناس للحمير ، وغيرهم كثير .

وكل هذا القصص عندهم ينتهى بنجاة الحمار من سهام الصياد ، وفراره فى سرعة شديدة ، وهى صـــورة مقصـــودة أرادهـــا الشـــعراء ليصوروا الحمار وهو يمعن فى السرعة ، وينجو ليحققوا ما بين الناقـــة وبينه من وصف جامع من القوة والسرعة والنشاط . [٨]

---

(١) ديوانه ص ١٤٨،١٦٨ .

(٢) ديوانه ص ٨٨ .

(٣) شرح شعره ص ٥٩ ،٢٧٧ .

(٤) ديوانه ص ٦٧ .

(٥) ديوانه ص ٣٦ ، ١٠٣ ، ١١١ .

(٦) ديوانه ص ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٥٤ ، ١٦٨ .

(٧) ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى ، تحقيق د/ صلاح الدين الهادى ، دار المعارف ، مصر ، من دون ، ص ٦٨ ، ١٧٥ .

(٨) ينظر : أساليب الصناعة ص ٣٧ .

مقتل الثور وهلاكه

وأما هلاك الثور وقتله فذكر الجاحظ أنه يأتى فى سياق الرثـاء والموعظة [١] ، وحتى كتابة هذه الكلمات لم أعثر فى هـذا السـياق إلا على قصيدة أبى ذؤيب المشهورة ، التى رثى بها أولاده الذين ماتوا فى عام واحد ، وحاول بها التصبر والتسلى والتجلد عن طريق التأمل فـى فلسفة الموت ، وإدراكه كل حى مهما بلغت قوته وحذره وبسالته ، مـن خلال سرد ثلاث قصص بطولية مختلفة :

الأولى : قصة حمر الوحش مع الصائد الكامن على مورد الماء.

الثانية : قصة الثور الوحشى مع كلاب الصيد وصاحبها .

الثالثة : قصة بطلين يتصارعان فيختلس كل منهما نفس صاحبه

ومطلع هذه القصيدة : [٢]

أمـن النـون وريبهـا تتوجـع ∴ والـدهر لـيس بمعتـب مـن يجـزع

وكان يبدأ كل قصة من هذه القصص بقوله :

والـدهر لا يبقـى علـى حدثانـه ∴ ... ...

والذى يعنينى ــ هنا ــ هو قصة الأوابد الوحشية ، وأبـدأ بمـا بدأت به سابقاً وهو قصة الثور الوحشى مع الكلاب فقال : [٣]

والـدهر لا يبقـى علـى حـد ثانـه ∴ شـبب أفزتـه الكـلاب مـروع

---

(١) ينظر : الحيوان ٢/ ٢٠ .

(٢) المفضلية رقم ١٢٦ ص ٤٢١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢٥ .

شـغف الكـلاب الضـاريات فـؤاده ∴ فـإذا رأى الصـبح المصـدق يفـزع

ويعـوذ بـالأرطى إذا مـا شـفه ∴ قطـر وراحتـه بليـل زعـزع

يرمـى بعينيـه الغيـوب وطرفـه ∴ مغـض يصـدق طرفـه مـا يسـمع

فغـدا يشـرق متنـه فبـدا لـه ∴ أولى سـوابقها قريبـاً تـوزع

فاهتـاج مـن فـزع وسـد فروجـه ∴ غـبر ضـوار وافيـان وأجـدع

ينهشـنه ويـذبهن ويحتمـى ∴ عبـل الشـوى بـالطرتين مولـع

فنحـا لهـا بمـذلقين كأنمـا ∴ بهمـا مـن النضـح المجـدح أيـدع

فكـأن سـفودين لمـا يقـترا ∴ عجـلا لـه بشـواء شـرب ينـزع

فصـرعنه تحـت الغبـار وجنبـه ∴ مـترب ، ولكـل جنـب مصـرع

حتـى إذ ارتـدت وأقصـد عصـبة ∴ منهـا وقـام شـريدها يتضـوع

فبـدا لـه رب الكـلاب بكفـه ∴ بـيض رهـاب ريشـهن مقـزع

فرمـى لينقـذ فرهـا فهـوى لـه ∴ سـهم فأنفـذ طرتيـه المنـزع

فكبـا كمـا يكبـو فنيـق تـارز ∴ بالخبـت إلا أنـه هـو أبـرع

فالشاعر بدأ أولاً بقصة الحمر الوحشية ، ثم دخل بعدها فى قصة الثور ، وبعد أن أفاض الشاعر فى وصف الثور والكلاب بتلك الصور التقليدية اتجه إلى وصف الصراع الدائر بينهما ، فما أن رأى الثور الكلاب حتى أصابه الفزع وأخذ فى العدو عدواً شديداً فى غير وجه ، وإنما همه الفرار من هذه الكلاب ، ولكنها كانت تلاحقه وتنهشه ، فكان يذودها عن نفسه بقرنيه المحددين الذين صبغا بالدماء من جراء الطعن والنطح حتى أنهما كالسفودين أى حديدتا الشواء اللتين أخرجتا من النار تواً ، حتى استطاع التغلب عليها .

ولكن ما أن قتل الثور بعض هذه الكلاب وجرح الأخرى حتى ظهر له صاحب هذه الكلاب الذى رماه بأسهمه لينقذ بقية الكلاب (لينقذ فرها) من قرنى الثور ، فوقع السهم فى مقتل من الثور فسقط على الأرض كالفحل اليابس من الإبل .

وهكذا ، فلم يكد الثور يتم انتصاره على الكلاب حتى ظهر له صاحبها فقضى عليه ، وكأن الحى مهما بلغت قوته وحذره وبسالته لابد أن تناله سهام الموت ، فترديه حتفه فلا مهرب ولا نجاة من الموت .

ومن هنا كانت هذه النهاية المفجعة لهذا الثور القوى لأجل العبرة والتسلى ، والتصبر على ما أصاب أولاده البواسل .

ونلاحظ أن الشاعر أفاض فى وصف الثور وجمع - تقريباً - كل الجزئيات التى جاءت فى هذا الشأن ، كما تطرق إلى وصف أعداءه من الكلاب ، ووصف الصراع ، ولكنه لم يتطرق إلى ذكر الصياد إلا عند النقطة الحاسمة عند نهاية أحداث القصة ، وهكذا تكون هجمة الموت ، لا يراها الحى إلا مرة واحدة ، وبآخرة .

وكأنه بهذا يرمز إلى صراعات الحياة ، ومجابهتها ، والتغلب عليها ــ أحياناً ــ ولكن عندما يحين القدر فلا مفر ولا مهرب .

مقتل الحمر الوحشية وهلاكها

ثم نأتي إلى قصة الحمار الوحشى وأتنه ، وهى فى القصيدة تسبق قصة الثور ، والعادة أن تنجو هذه الحمر من الصائد الكامن لها على مورد الماء ، وتنطلق هاربة فى سرعة وقوة حتى يتحقق الشبه - كما قلنا - بينها وبين ناقتهم ، ولكن هنا اختلفت النهاية ، فلنتتبع أبيات أبى ذؤيب حتى نهايتها لنرى ماذا يحدث ، قال : (١)

والدهر لا يبقى على حدثانه ∴ جون السراة له جدائد أربع
صخب الشوارب لا يزال كأنه ∴ عبد لآل أبى ربيعة مسبع
أكل الجميم وطاوعته سمحج ∴ مثل القناة وأزعلته الأمرع
بقرار قيعان سقاها وابل ∴ واه فأثجم برهة لا يقلع
فلبثن حيناً يعتلجن بروضه ∴ فيجد حيناً فى العلاج ويشمع
حتى إذا جزرت مياه رزونه ∴ وبأى حين ملاوة تتقطع
ذكر الورود بها وشاقى أمره ∴ شؤم وأقبل حينه يتتبع
فافتنهن من السواء وماؤه ∴ بثر ، وعانده طريق مهيع
فكأنها بالجزع بين نبايع ∴ وأولات ذى العرجاء نهب مجمع
وكأنهن ربابة وكأنه ∴ يسر يفيض على القداح ويصدع
وكأنما هو مدوس متقلب ∴ فى الكف إلا أنه هو أضلع
فوردن والعيوق مقعد رابئ الـ ∴ ـضرباء فوق النظم لا يتتلع
فشرعن فى حجرات عذب بارد ∴ حصب البطاح تغيب فيه الأكرع

---

(١) المفضلية رقم ١٢٦ ص ٤٢٢ وما بعدها .

فشربن ثم سمعن حساً دونه ∴ شرف الحجاب وريب قرع يقرع
ونميمة من قانص متلبب ∴ فى كفه جشء أجش وأقطع
فنكرنه ونفرن وامترست به ∴ سطعاء هادية وهاد جرشع
فرمى فأنفذ من نجود عائط ∴ سهماً ، فخر وريشه متصمع
فبدا له أقراب هذا رائغاً ∴ عجلاً فعيث فى الكنانة يرجع
فرمى فألحق صاعدياً مطحراً ∴ بالكشح فاشتملت عليه الأضلع
فأبدهن حتوفهن فهارب ∴ بذمائه أو بارك متجعجع
يعثرن فى حد الظبات كأنما ∴ كسيت برود بنى تزيد الأذرع

فنهاية القصة هنا مفجعة وقاسية بالنسبة لهذه الحمر ، فقد تمكن الصائد من الفتك بها على الرغم من حذرها ، وسرعتها وقوتها ، فبعد أن قطعت هذه المسافات ، وبعد أن عثرت على بغيتها وهو الماء ، ما كادت تروى ظمأها ، وتشفى غلتها حتى ظهر لها الموت الأحمر فى صورة صياد حاذق ، يرميها بسهامه المريشة فيقضى عليها ، وهنا مفارقة عجيبة ، حيث إن حمير الأعشى ـ هناك ـ أفلتت من سهام الموت ، ولكن حرارة العطش كانت تغلى فى أجوافها ، وحمير أبى ذؤيب ـ هنا ـ بعد أن ارتوت من الماء أدركها الموت ...... وهكذا لابد لكل حى من نهاية مهما حقق فى هذه الحياة ، وهذا هو مقصد أبى ذؤيب من سرد قصصه هذه عن الطرائد ، فسياق القصيدة فى الرثاء والموعظة كما علمنا ، حيث رثى بها أولاده الخمسة وماتوا فى عام واحد ، وكانوا رجالاً مشهورين بالنجدة والشجاعة ، وقد سبق هذه

الأبيات قوله : (١)

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ∴ فإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ∴ ألفيت كل تميمة لا تنفع

فالعين بعدهم كأن حداقها ∴ سملت بشوك فهى عور تدمع

حتى كأنى للحوادث مروة ∴ بصفا المشرق كل يوم تقرع

وتجلدى للشامتين أريهم ∴ أنى لريب الدهر لا أتضعضع

والنفس راغبة إذا رغبتها ∴ وإذا ترد إلى قليل تقنع

فالشاعر يأسى على فقد أولاده ، ولكن لا مهرب من المنية ، ومن ثم لجأ إلى التسلى بضرب المثل ، والتأمل فى مصير الكائنات وخاصة القوى منها .

يقول الدكتور / أبو موسى : " فأبو ذؤيب بكى بكاء مكتوماً وحزن حزناً لم يسمع فيه نحيبه إلا من بعيد ، ولكنه مع بعده فيه عمق ، وفيه جلال ، وفيه قلب يتصدع ، وقد رأيناه يبدأ لحنه بعتاب نفسه على التوجع من ريب الدهر ، والدهر لا يعتب من يجزع ، وظل يلوذ بما يسليه كلما اشتد وجع كربه ، ثم انصرف انصرافاً كاملاً إلى ضرب المثل الذى يعكس فيه ضعف الأحياء مع اختلاف طبائعهم ، وقدراتهم ، وما لديهم من وسائل فى مواجهة حدثان الدهر ، وكأنه بذلك يبكى الحياة كلها ، صامتها وناطقها ، يبكى جون السراة ، والشبب المفزع ، والبطل المستشعر حلق الحديد ، الكل عند أبى ذؤيب سواء .

---

(١) المفضلية رقم ١٢٦ ص ٤٢٢ .

والشاعر الذى يبكى الإنسان بكاءً عميقاً لا يضن بدموعه على هذه الأحياء فى هذا العالم الصامت ، الذى لا تسمع أوجاعه ، ولا تعرف آماله ، ولا آلامه ، وحينئذ يكون بكاء الشاعر أشبه ببكاء الفيلسوف ، فأبو ذؤيب طوحت به مأساته على شاطئ الوجود فرأى ضعفه ، وقهره، فظل ينوح عليه ، الإنسان والحيوان عنده فى هذا سواء ، وهذا هو الأشبه بالشاعر الكبير ، والأقرب إلى طبع العبقرية والنبوغ " (١)

ولما كان هذا غرض أبياته وسياق قصيدته جاءت نهاية قصصه بهذه النهاية المفجعة لهذه الأوابد الوحشية والتى تتوافق مع طبيعة الغرض والسياق .

ومن الغريب أن نجد قصيدة أخرى لأبى ذؤيب فى سياق الرثاء وأخذ الموعظة بتسلط الدهر والموت ، ذكر فيها قصة حمار الوحش وأتنه ، والثور الوحشى الذى يصارع الكلاب ، ولكنها لم تنته بمقتل الحمر ، بل انتهت بتباريها فى الجرى والهرب وتغلب الثور على الكلاب ، ونجاته من صاحبها مع أن سياقها الرثاء والموعظة حيث بدأها بقوله : (٢)

تالله يبقى على الأيام مبتقل ∴ جون السراة رباع سنه غرد

فى عانة بجنوب السى مشربها ∴ غور ومصدرها عن مائها نجد

يقضى لبانته بالليل ثم إذا ∴ أضحى تيمم حزماً حوله جرد

---

(١) قراءة فى الأدب القديم د/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، ص ٣٢٣ .

(٢) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٦ .

فامتـد فيـه كمـا أرسـى الطـرف بـدو ∴ داة القــرارة سـقب البيـت والوتــد

مستقبل الـريح تجـرى فـوق منسجه ∴ إذا يــراع اقشـعر الكشــح والعضـد

يرمــى الغيــوب بعينيــه ومطرفــه ∴ مغـض كمـا كسـف المسـتأخذ الرمـد

فــافتن بعــد تمــام الظـم ناحيــة ∴ مثــل الهــراوة ثنيــاً بكرهــا أبــد

إذا أرن عليهـــا طـــاردا ترقـــت ∴ والفوت إن فـات هـادى الصدر والكتد

ثم اتجه إلى وصف الثور الوحشى فقال : (١)

ولا شــبوب مـــن الـــثيران أفـــرده ∴ عــن كـوره كثـرة الإغـراء والطـرد

من وحش حوضى يراعى الوحش مبتقلا ∴ كأنـــه كوكـب فــى الجــو منحــرد

فــى ربــرب بلــق حــور مــدامعها ∴ كــأنهن بجنبــى حربــة الـــبرد

أمســى وأمســين لا يخشــين بائجــة ∴ إلا ضــوارى فــى أعناقهــا القــدد

وكــن بــالروض لا يــرغمن واحــدة ∴ مــن عيشــهن ولا يـدرين كيـف غـد

حتــى استبانت مـع الإصبـاح راميهـا ∴ كأنـــه فــى حواشــى ثوبــه صــرد

فســـمعت نبـــأة منـــه وآســـدها ∴ كـــأنهن لدىأنســـائه الـــبرد

حتــى إذا أدرك الرامــى وقــد عرسـت ∴ عنــه الكـلاب فأعطاهــا الــذى يعـد

غادرهــا وهــى تكبــو تحـت كلكلــه ∴ يكســو النحـور بـورد خلفـه الزبـد

حتـــى إذا أمكنتـــه كـــان حينئـــذ ∴ حــراً صـبوراً فـنعم الصـابر النجـد

والقصيدة قريبة فى نظمها وأسلوبها من القصيدة السابقة ، وإن كان الشاعر فى قصة الحمر الوحشية لم يتطرق إلى ذكر الصــياد ، إلا إنه ركز على سرعة الحمر فى طرادها وفرارها ، ثم إنه جعل الثور فى

---

(١) المرجع نفسه ٦٠/١ .

سرب من البقر يستأنس به ويرعى معه ، ولم يجعلــه متفــرداً وحــداً مذعوراً كعادة الشعراء فى مثل هذا ، ثم انتهت القصة بنجاة الثور بعــد تغلبه على كلاب الصائد، ثم انطلق إلى سبيله فرحاً بحسن بلائه وصبره.

وموطن الغرابة فيها : كونها فى الرثاء والموعظة ومــع ذلــك انتهت نهاية سعيدة بالنسبة للأوابد لا تتفق مع الهدف العام وهو الاتعاظ والتسلية ، ومخالفتها لكلام الجاحظ فى هذا السياق .

ولعل الشاعر أراد الإخبار عن أن هذه الكائنات القوية المحبورة بفتوتها وسرعتها حتى أنها لا تدرك وتنجو من المخاطر المحدقــة بهــا لابد أن ستصير يوماً إلى هذا المصير الذى صار إليــه أولاده الأشــداء البواسل ، ولكنه ترك تحديد نهايتها ؛ لأن مقصده الإشارة إلــى قوتهــا وسرعتها وتمتعها بذلك فقط ، فيلمحه المتأمل المدقق فى طبيعة الحيــاة والموت .

والغريب ــ أيضاً ــ أن هاتين القصيدتين صدرتا عــن شــاعر واحد ، وفى سياق واحد ، بل فى مناسبة واحدة .

وهناك سياق آخر يختلف عما نحن بصدده هــدفاً وموضــوعاً ، وتقتل فيه هذه الطرائد والأوابد ، وهو سياق وصــف الفــرس وبيــان سرعته وقوته .

فإن الشعراء تواردوا ــ أحياناً ــ على وصف ســرعة الفــرس بإدراكه للطرائد التى يطردونها ويخرجــون لصــيدها ، حتــى إنهــم يستمكنون من قتلها برماحهم التى يحملونها ، فالسياق إذاً يختلــف عــن السياق السابق وكذلك الغرض ؛ إذ هو وصــف هــذا الفــرس وقوتــه

وسرعته وحدته ، والاستطراد إلى إدراكه هذه الطرائد دون أن يقف الشاعر عند هذه الطرائد من الحمر والبقر فيصفها أو يتحدث عنها إلا بمقدار ما يدل على سرعتها ، وأما غرضه من ذكرها التدليل على قوة وسرعة فرسه الذى يدرك هذه الفرائس حتى يصبح " قيد الأوابد " كما ذكروا .

فمن ذلك قول امرئ القيس فى وصف رحلة صيد متحدثاً عن فرسه : (١)

وقد اغتدى قبل العطاس بهيكل ∴ شديد مشك الجنب فعم المنطق (٢)

بعثنا ربيئاً قبل ذلك مخملاً ∴ كذئب الغضا يمشى الضراء ويتقى

فظل كمثل الخشف يرفع رأسه ∴ وسائره مثل التراب المدقق(٣)

وجاء خفياً يسفن الأرض بطنه ∴ ترى الترب منه لاصقاً كل ملصق

فقال : ألا هذا صوار وعانة ∴ وخيط نعام يرتعى متفرق(٤)

فقمنا بأشلاء اللجام ولم نقد ∴ إلى غصن بان ناضر لم يحرق

نزاوله حتى حملنا غلامنا ∴ على ظهر ساط كالصليف المعرق(٥)

كأن غلامى إذ علا حال متنه ∴ على ظهر باز فى السماء محلق

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٥١ – ١٥٥ .

(٢) قبل العطاس : أى قبل ظهور الصباح ، هيكل : أى فرس ضخم ، فعم المنطق : أى ممتلئ الجوف .

(٣) الخشف : ولد الظبية .

(٤) الصوار : القطيع من بقر الوحش ، العانة : القطيع من حمر الوحش ، الخيط من النعام : الجماعة .

(٥) نزاوله : أى نحاول منه ركوب الغلام ، الساطى : الذى يسطو بنفسه ، الصليف : عود من أعواد الرحل ، المعرق : الذى برى برياً .

رأى أرنبـاً فـانقض يهـوى أمامـه ∴ إليهـا وجلاهـا بطـرف ملقلـق
فقلـت لـه : صـوب ولا تجهدنـه ∴ فيـذرك مـن أعلـى القطـاة فتـذلق[1]
وأدبـرن كـالجزع المفصـل بينـه ∴ بجيد الغـلام ذى القميص المطوق
وأدركهـن ثانيـاً مـن عنانـه ∴ كغيث العشى الأقهب المتودق [2]
فصـاد لنـا ثـوراً وعيراً وخاضباً ∴ عـداء ولم ينضـح بمـاء فيعـرق
وظـل غلامـى يضجع الـرمح حولـه ∴ لكـل مهـاة أو لاحقـب سـهوق
وقـام طـوال الشخص إذ يخضبونه ∴ قيـام العزيـز الفارسـى المنطـق
فقلنـا ألا قـد كـان صـيد لقـانص ∴ فخبـوا علينـا كـل ثـوب مـروق
وظـل صـحابى يشـتون بنعمـة ∴ يصـفون غـاراً باللكيـك الموشـق
ورحنـا كأنـا مـن جـؤاثى عشـية ∴ نعـالى النعـاج بـين عـدل ومشنق [3]
ورحنـا بكـابن المـاء تخنـب وسطنا ∴ تصـوب فيـه العـين طـوراً وترتقـى
وأصـبح زهلـولاً يـزل غلامنـا ∴ كقـدح النضـى باليـدين المفـوق
كـأن دمـاء الهاديـات بنحـره ∴ عصـارة حنـاء بشـيب مفـرق

فنلاحظ – هنا – أن الطرائق ليس هى المرادة بالشعر والوصف ، وإنما رأس المعنى هو الحديث عن فرسه الذى عشقه وأحبه، ومدى سرعته وقوته وعظم هيكله ، ومن دلائل سرعته أنه يدرك الطرائد فى يسر وبأقل جهد حتى يتمكن راكبه وقائده من اصطيادها

---

(١) يذرك : أى يسقطك ويلقيك ، القطاة : موضع الردف من الفرس .

(٢) الأقهب : ما كان لونه إلى الكدرة مع البياض ، المتودق : الشديد من المطر .

(٣) كأن من جؤاثى : أى من ملوك جؤاثى وهى قرية بالبحرين ، المشنق : المعلق الذى لم يجعل فى الأعدال .

وقتلها ، ونلاحظ أن الشاعر قد بالغ فى تعداد فرائســه ، حيــث صــاد ــ أولاً ــ ثوراً ، وحماراً ، وظليماً موالاة أى واحداً بعد الآخر وقبل أن يعرق ، ثم إنه اتجه إلى بقية البقر والحمر قتلاً وفتكاً ، وهو غلام واحد على فرس واحد ، حتى إنهم رجعوا فى آخر يومهم وهم يحملون صيدهم كالعدل على رواحلهم ، ويعلقون ما فاض بعد الأعدال ، وذلك غير مــا اشتووا وطبخوا ، فيا لكثرة ما غنموا فى يومهم هذا ! ثم رجعوا بفرسهم معهم بكامل خفته ونشاطه وهم فى غاية الإعجاب والسرور به ، وكأنه قد خضب بالحناء من آثار دماء الفرائس التى لحق بها .

وهكذا ، فلابد إذاً أن تقتل هذه الطرائد وتقتنص حتى يكتمل لــه وصف فرسه بالقوة والسرعة ، وحتى تظهر قيمته ونجابته .

وقد أكثر امرؤ القيس من ذكر مثل هذه القص فى شــعره (١) ، وخاصة فى سياق وصف الفرس ، ومن أبرع ما قال فى ذلك ما جاء فى معلقته بعد وصف رائع لفرسه ، قال : (٢)

كــأن دمـــاء الهاديـــات بنحـــره ∴ عصـــارة حنـــاء بشـــيب مرجـــل

فعـــن لنـــا ســـرب كـــأن نعاجـــه ∴ عـــذارى دوار فـــى مـــلاء مـــذيل

فـــأدبرن كـــالجزع المفصـــل بينـــه ∴ بجيـــد معـــم فـــى العشـــيرة مخـــول

فألحقـــه بالهاديـــات ودونـــه ∴ جواحرهـــا فـــى صـــرة لم تزيـــل

فعـــادى عـــداء بـــين ثـــور ونعجـــة ∴ دراكـــاً ولم ينضـــح بمـــاء فيغســـل

---

(١) ينظر ديوان امرئ القيس ص ٦٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٦٥ .

(٢) ديوانه ص ٤٩ : ٥١ .

فظل طهاة اللحم من بين منضج ∴ صفيف شواء أو قدير معجل

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه ∴ متى ما ترق العين فيه تسهل

فبات عليه سرجه ولجامه ∴ وبات بعينى قائماً غير مرسل

ولعل زهير بن أبى سلمى قد أجاد - أيضاً - فى هذا الفن ، ومن أبرع ما جاء فى ذلك قوله فى قصيدته التى مدح بها حصن بن حذيفة وهى من أجود شعره : (١)

وغيث من الوسمى حو تلاعه ∴ أجابت روابيه النجاء هواطله

صبحت بممسود النواشر سابح ∴ ممر أسيل الخد نهد مراكله

أمين شظاه لم يخرق صفاقه ∴ بمنقبة ولم تقطع أباجله

قليلاً علفناه فأكمل صنعه ∴ فتم وعزته يداه وكاهله

إذا ما غدونا نبتغى الصيد مرة ∴ متى نره فإننا لا نخاتله

فبينا نبغى الوحش جاء غلامنا ∴ يدب ويخفى شخصه ويضائله

فقال شياه راتعات بقفزة ∴ بمستأسد القريان حو مسائله

ثلاث كأقواس السراء وناشط ∴ قد اخضر من لس الغمير جحافله

وقد خرم الطراد عنه جحاشه ∴ فلم يبق إلا نفسه وحلائله

وقال أميرى : ما ترى رأى ما ترى ∴ أنختله عن نفسه أم نصاوله

فبتنا عراة عند رأس جوادنا ∴ يزاولنا عن نفسه ونزاوله

فنضربه حتى اطمأن قذاله ∴ ولم يطمئن قلبه وخصائله

وملجمنا ما إن ينال قذاله ∴ ولا قدماه الأرض ، إلا أنامله

فلأياً بلأى قد حملنا غلامنا ∴ على ظهر محبوك ظماء مفاصله

---

(١) شرح شعر زهير لثعلب ص ١٠٣ – ١١٠ .

فقلنــا لـــه : ســدد وأبصــر طريقـــه	∴	**ومــا هــو فيــه عــن وصــاتى شــاغله**
وقلـــت : تعلـــم أن للصـــيد غــــرة	∴	**وإلا تضـــيعه فإنــــك قاتلـــــه**
فــــأتبع آثـــار الشـــياه وليـــدنا	∴	**كشؤبوب غيـث يحفـش الأكـم وابلـه**
نظـــرت إليـــه نظـــرة فرأيتـــه	∴	**علــى كــل حــال مــرة هـــو حاملـه**
يثـرن الحصـى فـى وجهـه وهـو لاحـق	∴	**ســـراع تواليـــه صـــياب أوائلـــه**
فـــرد علينــــا العـيــر مـــن دون إلفـــه	∴	**علــى رغمــه يــدمى نســاه وفائلـه**
ورحنـــا بـــه ينضـــوا الجيـــاد عشـــية	∴	**مخضـــبة أرســــاغه وحواملـــــه**
بــذى معيــة لا موضــع الـرمح مسـلم	∴	**لـــبطء ولا مـــا خلــف ذلــك خاذلـــه**

ونلاحظ أن الأحداث ــ هنا ــ هى نفسها فى قصة امرئ القيس، ولعل هذا ــ أيضاً ــ صار تقليداً متبعاً ، وإن كانت المعانى الجزئية هنا والقص أكمل وأدق ، وامرؤ القيس تميز بروعة التصوير وفضل السبق، والغرض والسياق فيهما واحد ، وهو وصف الفرس بالسرعة والقوة .

ونلاحظ أنه لم يسرف فى عدد الفرائس التى اقتنصها - هنا - فلم يرجع إلا بالحمار ، على عكس امرئ القيس الذى أسرف فـى تعـداد فرائسه ، ونلاحظ أن الشاعر خلط كثيراً بين طرائده ، فتارة يقول (شياه) أى سرب من البقر ، وتارة يقول (أتنه) و (جحاشه) و (عير) وهو الحمار الوحشى ، فلعله كان يطارهما معاً ، أو لأنهما ليسا جل اهتمامه ، حيث إن اهتمامه الأول ينصب على وصف فرسه الذى يطـارد هــذه الأوابد القوية السريعة ، سواء أكانت بقراً أم حمراً .

والذى يعنيننا ــ هنا ــ أن فى هذا السياق ، وهو سياق وصـف الفرس تنتهى رحلة صيدهم بمقتل هذه الطرائد واقتناصــها ، إذ المــراد التمدح والفخر بسرعة فرسه الذى يدرك طرائده ، وليس وصـف هــذه الطرائد وجعلها مشبهاً به لناقته أو فرسه .

إذاً فنص الجاحظ السابق لم يسلم ؛ حيث إنه تحقق بعضه ، ولم يتحقق البعض الآخر .

فأما ما تحقق وصح كلامه فهو نصه على أن عادة الشعراء : "إذا كان الشعر مديحاً وقال : كأن ناقتى بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هى المقتولة ، ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب ، وربما قتلتها " (١) وهو ما حدث فى عامة الشعر العربى القديم الذى كان يأتى فى سياق وصف الناقة والفخر بالرحلة عليها ، وقد رأينا بعض نماذجه ، وقد اعترض أحد الباحثين على تحديد أغراض معينة فى القصيدة يتحدد على أثرها نهاية قصة الصيد ، أو قصة الثور مع الكلاب وصاحبها (٢) ولكن الواقع الشعرى يؤيد كلام الجاحظ فى هذا .

وأما ما لم يسلم من كلامه فنصه على أن عادة الشعراء " إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التى تقتل بقر الوحش " (٣) حيث إن هذا الكلام قد تحقق فى قصيدة أبى ذؤيب الأولى ، والتى لم أجد نصاً آخر يعضدها (على حد علمى) ، ولم يتحقق فى قصيدته الثانية .

وكذلك قوله : " وأما فى أكثر ذلك فإنها تكون هى المصابة ، والكلاب هى السالمة الظافرة وصاحبها الغانم " فإن تتبع ما ورد فى هذا

---

(١) الحيوان ٢/٢٠ .

(٢) وهو الدكتور / عباس مصطفى الصالحى ، فى كتابه :الصيد والطرد فى الشعر العربى ص ٩٧ .

(٣) الحيوان ٢/٢٠ .

الشأن من الشعر القديم انتهت ــ غالباً ــ بنجاة الثــور وفــوزه وفتكــه بالكلاب ، وهربه من صاحبها ، ولن أبالغ إذا قلت إن هذا - أيضاً - قــد سرى فى شعر العصر الأموى الذى حاولت أن أجد فيه تأييــداً لكــلام الجاحظ كشعر الأخطل وجرير والفرزدق وذى الرمة .

ألا أن يكون كلام الجاحظ هذا يحمل على الحقيقة والواقع بغض النظر عن فنون الشعر ، وطرقه ومسالكه ، حيث اعتــرض بقولــه : " ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ... واما فى أكثر ذلــك فإنهــا تكون هى المصابة والكلاب هى السالمة ،وصاحبها الغانم " (١) حيث إن كتابه لا يقتصر على ما قاله الشعراء ، وإنما هو فى وصف الحيــوان ، وتتبع عاداته وأوصافه وأخباره .

فيكون الجزء الأول من كلامه إخباراً عن حــال الشــعراء فــى وصف الثيران مع الكلاب ، وكلامه الثانى عن الحقيقة والواقع ، ومــن هنا نستطيع أن نوفق بينهما ، وإلا فإن الواقع الشعرى لا يقــر الجــزء الثانى من كلام الجاحظ .

ولعله بنى حكمه هذا على شعر لم أقف عليه (حتى الآن) ، أو ربما بنى حكمه بالقياس على بعض الشعر الــذى جــاء فــى الرثــاء والموعظة ، وفيه يدرك الموت والهلاك الوعول المعتصمة فــى قلــل الجبال ، والوحوش المتأبدة ، والطيور الجارحة وغيرها ، وهى قصص شبيهة أو قريبة مما نحن بصدده .

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٠ .

فمن ذلك قصيدة لصخر الغى الهذلى [١] يرثى ولـــده (تليـــداً) ويتأسى بهلاك الوحوش والأوابد فقال : [٢]

أرقـــت فبـــت لم أذق المنامـــا ∴ وليلـــى لا أحـس لــه انصـراما
لعمــــرك والمنايـــا غالبـــات ∴ ومـــا تغنـــى التميمـات الحمامـــا
لقـــد أجـــرى بمصـــرعه تليـــد ∴ وســـاقته المنيـــة مـــن أداما
إلى جـــدث بجنـــب الجـــوِّ راسٍ ∴ بـــه مـــا حـــل ثـــم بـــه أقامـــا
أرى الأيـــام لا تبقـــى كريمـــاً ∴ والصـــحم الأوابـــد والنعامـــا
ولا العصـــم العواقـــل فـــى صـخور ∴ كســـين علىفراســـنها خـــداما
لهـــا معـــن وتصـــدر فـــى لهـــوب ∴ بهـــا ذبـــت أوائلـــها هيامـــا
أتـــيح لهـــا أقيـــدر ذو حشـــيف ∴ إذا ســـامت علـــى الملقـــات ســـاما
خفـــى الشـــخص مقتـــدر عليهـــا ∴ يســـن علـــى ثمائلـــها الســـماما
فيبـــدرها شـــرائعها فيرمـــى ∴ مقاتلـــها فيســـقيها الزؤامـــا

فالشاعر يحاول التصبر والتسلى على فقده ولده وفلذة كبده بـــأن المنايا لا فرار منها ، وأن القدر لا تنفع معه الرقى ولا التمائم .. فالدهر والأيام لا تبقى على إنسان مهما كانت منزلته ، كما أنها لا تبقى علـــى الوحوش المتأبدة ، ولا الحمر ولاالنعام ، ويضرب لنا مثلاً بهذه الوعول المعتصمة فى قلل الجبال ، حيث يقدر لها صائد نحيف خفيـــف اللحـــم يرميها بسهامه عند ورودها فيوردها حتفها ، ثم يدخل فى ســـرد قصـــة رائعة عن الحمر فيقول :

---

(١) هو صخر بن عبد الله الخثمى أحد شعراء هذيل فى الجاهلية ، وقتلته خزاعة بعد أسره .

(٢) شرح أشعار الهذليين ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

ولا علجـــان ينتابـــان روضـــاً ∴ نضـــيراً نبتـــه عمـــا تؤامـــا
كـــلا العجلـــين أصـــعر صـــعيرى ∴ تخـــال نســـيل متنيـــه الثغامـــا
فباتـــا يـــأملان ميـــاه بـــدر ∴ وخافـــا راميـــاً عنـــه فحامـــا
فجـــاءا وارديـــن فآنســـاه ∴ تخـــال ســـواد لمتـــة برامـــا
فراغـــا نـــاجيين فقـــام يرمـــى ∴ فآبـــت نبلـــه قصـــداً حطامـــا
كأنهمـــا إذا علـــوا وجينـــا ∴ ومقطـــع حـــرة بعثـــا رجامـــا
يـــثيران الجنـــادل كابيـــات ∴ إذا جـــارا معـــاً وإذا اســـتقاما
فباتـــا يحييـــان الليـــل حتـــى ∴ أضـــاء الصـــبح مبتلجـــاً وقامـــا
فإمـــا ينجـــوا مـــن خـــوف أرض ∴ فقـــد لقيـــا حتوفهمـــا لزامـــا
وقـــد لقيـــا مـــع الإشـــراق خـــيلاً ∴ تســـوف الـــوحش تحســـبها خيامـــا
بكـــل مقلـــص ذكـــر عنـــود ∴ يبـــذ يـــد العشـــنق واللجامـــا
فشـــامت فـــى صـــدورهما رماحـــاً ∴ مـــن اليزنـــى اشـــربت الســـماما

فهذان الحماران يرعيان فى مكان معشب ، يمتلئن قوة ونشاطاً ، وعند ورودهما ماء بدر يكون فى انتظارهما صياد متخفى فى قتره ، فما يقربان الماء حتى يفاجئهما بنبله وسهامه ، فيخطئهما ، فينطلقان هاربان فى سرعة وقوة .

وإلى هنا تنتهى قصة الحمر الوحشية إما بنجاتهما وفرارهما ، أو أصابتهما بالسهام فتقتل أو تصطاد ، ولكن الجديد والطريف هنا أن هذه الحمر بعد فرارها وعدوها طوال الليل فوجئت عن طلـــوع الشـــمس ، وانبلاج الصبح بخيل عليهـــا رجـــال يمارســـون الصـــيد والقـــنص ، فطاردوهما بخيلهم الطويلة السريعة ، حتى قتلوهما برماحهم اليزنيـــة ،

وكأن الحى مهما حاول الفرار من منيته ، وكلما اجتهد فى محاولة النجاة من الموت ، لابد أن يلاقى حتفه ، حتى مع الحيلة والاقتدار .

ومن ذلك قصيدة رائعة للنمر بن تولب العكلى [١] شبيهة بهـذا ، وسياقها الوعظ - أيضاً يقول : [٢]

ولـو أن مـن حتفـه ناجيـاً	∴	**لكـان هـو الصـدع الأعصـما**
بإسـبيل ألقـت بـه أمـه	∴	**علـى رأس ذى حبـك أبهمـا**
إذا شـاء طـالع مسـجورة	∴	**تـرى حولهـا النبـع والسـاسما**
يكـون لأعدائـه مجهـلاً	∴	**مضـلاً وكانـت لـه معلمـا**
سـقتها رواعـد مـن صـيف	∴	**وإن مـن خريـف فلـن يعـدما**
أتـاح لهـا الـدهر ذا وفضـة	∴	**يقلـب فـى كفـه اسـهما**
فراقبـه وهـو فـى قـتره	∴	**ومـا كـان يرهـب أن يكلمـا**
فأرسـل سـهماً لـه أهزعـاً	∴	**فشـك نواهقـه والفمـا**
فريـغ الغـرار علـى قـدرة	∴	**ومـا كـان يرهـب أن يكلمـا**
فظـل يشـب كـأن الولـو	∴	**ع كـان بصـحته مغرمـاً**

---

(١) أحد الفرسان الأجواد فى الجاهلية والإسلام ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم وكتب له كتاباً ، وهو من الشعراء المجيدين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه : الكيس لحسن شعره ، وذكره ابن سلام فى الطبقة الثامنة الجاهلية .

(٢) منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك ، تحقيق / محمد نبيل طريفى ، طبعة دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ٢٨٨/١ .

وهى شبيهة بقصة الوعل السابقة عند صخر الغى الهذلى ، ولأخى صخر هذا قصيدة رثى بها صخراً أخاه ، وتسلى فيها بقصة وعل ـ أيضاً ـ [١] وقصة عقاب قوية تصطاد الفرائس وفى إحدى جولاتها تصطاد غزالاً صغيراً ، ولكنها تصطدم بطرف جبل بارز فينكسر جناحها فتسقط ولم تستطع الطيران ، وتركت فراخها بدون عائل فى وكرها : [٢]

فلم يرها الفرخان بعد مسائهما ∴ ولم يهدأ فى عشها من تجاوب

فذلك مما أحدث الدهر أنه ∴ له كل مطلوب حثيث وطالب

وهذه النظرة الفلسفية شاعت فى شعر هذيل خاصة ،وربما هذا نهج مطروق عندهم ، وكل هذا يرمز إلى أن الموت ينال كل حى مهما كانت قوته وحذره وبأسه ، حيث كان يأتى فى سياق الرثاء والتسلى والموعظة بتسلط الدهر (الموت) .

فلعل الجاحظ نظر إلى هذا الشعر الذى ذكر فيه قصص الحيوان والأوابد والوحش ، وكان ينتهى بهلاك هذه الكائنات القوية والذى كان يأتى فى سياق الرثاء والموعظة ، والتسلى ، وقاس عليه حكمه بالنسبة للشعر الذى ذكر فيه بقر الوحش نفسه ، الذى لم يرد فيه شىء يذكر سوى قصيدة أبى ذؤيب .

المهم أنه بالرجوع والاحتكام إلى ما ورد من الشعر فى قصة الثور الوحشى مع كلاب الصيد ، أو ما يلحق به من قصة الحمر

---

(١) ينظر : شرح أشعار الهذليين ٢٤٦/١ وما بعدها .

(٢) ينظر : شرح أشعار الهذليين ١٥٠/١ وما بعدها .

الوحشية ، نجد أن ما ورد فى ذلك جاء فى سياق وصف الناقة والتمدح أو الافتخار بالرحلة عليها ، وكلها انتهت بنجاة الثور والحمر وفرارها فى قوة وسرعة .

وأما ما جاء فى هلاكها فإن ذلك كان فى سياق الرثاء ، ولم أقف إلا على قصيدة واحدة ، وهى قصيدة أبى ذؤيب الهذلى ، وذلك غير ما جاء فى وصف الخيل ورحلات الصيد عليها ، وهذا غير ما نحن بصدده فى هذا المبحث .

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على أشرف الكائنات ، سيدنا محمد وعلى آلبه وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

فبعد تلك السياحة فى الشعر الجاهلى وما تلاه من شعر المخضرمين : تتبعت فيها قصة ثور الوحش وحماره ، وصراعهما مع الحياة والأحياء ، وصدى تلك الأحداث عند شعراء تلك الفترة : تبين لى أن السياق والغرض هما اللذان يتحكمان فى وضع نهاية هذا القصص :

فإذا كان السياق الفخر بقوة ناقتهم وسرعتها وصلابتها وصبرها، فإن هذا القصص ينتهى بنجاة تلك الأوابد وهربها فى سرعة وقوة ، فيحققوا وجه الشبه بين ناقتهم وتلك الأوابد ، وهذا شبه مطرد عندهم فى أشعارهم .

وأما إذا كان السياق رثاء وموعظة ، أو الهدف أخذ العبرة والتسلى عن المصاب فإن القصة كانت تنهتى بمقتل هذه الأوابد أو هلاكها ، فالموت ينال كل حى مهما بلغت قوته وسرعته وحذره ، وهذا ظهر أكثر فى شعر شعراء هذيل ، وهو نهج مطروق عندهم .

وهناك سياق آخر تقتل فيه الأوابد وهو سياق وصف الفرس ومدى قوته وسرعته ، حيث يدرك هذه الأوابد فى يسر وطواعية ، بحيث يكون " قيد الأوابد "

فيتضح لنا أن الشعراء القدماء أحسنوا استغلال عناصر الطبيعة وتوظيفها لخدمة أغراضهم وأهدافهم من القول ، ومن هنا فقد تحكموا فى وضع نهايات ذلك القصص البارع ، وهذه سمة العبقرية والنبوغ .

والله الموفق

فهرس المصادر والمراجع

- أساليب الصناعة فى الشعر الجاهلى د/ أحمد محمد النجار ، طبعة الصدر للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٩٢م .

- الأصمعيات للأصمعى ، تعليق د/ محمد حمود ، طبعة دار الفكر اللبنانى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

- تطور الشعر القصصى فى وصف الأوابد من العصر الجاهلى إلى العصر الأموى د/ أحمد محمد النجار ، ط الدار الفنية للنشر والتوزيع القاهرة سنة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .

- الحيوان للجاحظ وضع حواشيه / محمد باسل عيون السود ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

- ديوان الأعشى ، دار صادر ، بيروت ، من دون .

- ديوان امرئ القيس تحيق / حنا الفاخورى ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩هـ/١٩٩٨م .

- ديوان أوس بن حجر تحقيق د/ محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- ديوان الحطيئة رواية أبى عمرو الشيبانى ، شرح أبى سعيد السكرى ، دار صادر ، بيروت ، من دون .

- ديوان سحيم (عبد بنى الحسحاس) تحقيق / عبد العزيز الميمنى ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م .

- ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى ، تحقيق د/ صلاح الدين الهادى ، دار المعارف ، مصر ، من دون .

- ديوان عبيد بن الأبرص ، دار صادر ، بيروت ، من دون .

- ديوان علقمة بن عبده ، دار صادر ، بيروت .

- ديوان كعب بن زهير ، قدم له د/ محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

- ديوان لبيد بن أبى ربيعة العامرى ، دار صادر ، بيروت ، من دون .

- ديوان النابغة الذبيانى ، تحقيق / كرم البستانى ، ط دار صادر ، بيروت ، من دون تاريخ .

- شرح أشعار الهذلين صنعة أبى سعيد السكرى ، تحقيق / عبد الستار أحمد فراج ومراجعة / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى ، القاهرة .

- شرح شعر زهير بن أبى سلمى لثعلب ، تحقيق د/ فخر الدين قباوة ، طبعة دار الفكر ، دمشق، ودار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨م .

- الصيد والطرد فى الشعر العربى حتى نهاية القرن الثانى الهجرى د/ عباس مصطفى الصالحى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، أولى ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ، شرح وتحقيق الأستاذ / محمود محمد شاكر ، طبعة المدنى ، جدة ، من دون .

- قراءة فى الأدب القديم د/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

- المفضليات للمفضل الضبى ، تحقيق الأستاذ / أحمد محمد شاكر والأستاذ / عبد السلام هارون ، طبعة دار المعارف بمصر الطبعة التاسعة رقم ١٢٦ ص ٤٢٠ وما بعدها ، وشرح أشعار الهذلين صنعة أبى سعيد السكرى ، تحقيق / عبد الستار أحمد فراج ومراجعة / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدنى ، القاهرة .

- منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك ، تحقيق / محمد نبيل طريفى ، طبعة دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى .